

تجهيز الجيش ووقوع المعركة

كان للنداء الذي وجهه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى كافة العرب بالمشاركة في حرب الروم أثر كبير في تكوين قوةٍ قسمها إلى أربعة جيوش يقودها أربعة من الصحابة هم : أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو ابن العاص ويزيد بن أبي سفيان، وشرحيل بن حسنة، وقد توجهت هذه الجيوش إلى الشام في مسهل صفر سنة ١٣هـ في أربعة محاور، وما أن بلغ هرقل توجّه هذه الجيوش حتى شكل قوة من أربعة جيوش قوامها مائتا ألف مقاتل تمركزت على نهر اليرموك وكانت بقيادة أخيه تذارق وقائده باهان بينما كانت جيوش المسلمين لا تزيد على الستة وثلاثين ألفاً، ولما بلغ أبو بكر كثرة جموع الروم أمر خالد بن الوليد الذي كان مرابطاً بـ(عين التمر) على تخوم العراق أن بنيب المثني بن حارثة، ثم ينطلق بما أمكن لديه من قوة نحو اليرموك، فكانت الالتفافة التاريخية العظيمة التي التف بها خالد حول صحراء حماد، متحدياً المصاعب والأخطار، وبلغ الشام في خمسة أيام، ودهش الروم وهو يدهامهم في (مرج راهط) على بعد ١٨ كيلومتراً من دمشق، ثم انعطف سائراً في سفوح جبل حوران (الدروز حالياً) حتى بلغ (درعاء) الواقعة بين نهر اليرموك وجبل الدروز والتي تبعد عن دمشق جنوباً ثمانين كيلومتراً.

وهكذا انضم جيش خامس قوامه تسعة آلاف مقاتل إلى جيوش المسلمين الأربعة ليكمل به قوة قوامها خمسة وأربعين ألف مقاتل.

واجتمع خالد وإثر وصوله بقيادة الجيوش الأربعة، وكلمهم قائلاً كما روى الواقدي :

إن هذا اليوم من أيام الله تعالي لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي،
فاخلصوا يا قوم جهادكم، واريدوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده،
ولا تقاتلوا قوماً على غير نظام... وإن من وراءكم لو يعلم عملكم حال
بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم.

وقال لهم : هلموا يا قوم فإن هؤلاء قد تهيئوا فإن رددناهم إلى خنادقهم
لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا لتتعاور الأمانة فليكن عليها
بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم
اليوم. (١)

قال الواقدي : فكان لخطبة خالد رضي الله عنه وقع عظيم وفائدة كبرى
بها جمع كلمتهم وألف ذات بينهم... (٢)

ثم أخذ خالد في تقسيم الجيش وتنظيمه فقسمه إلى أربعين كردوساً كل
كردوس يضم قرابة الألف، وجعل لكل كردوس أميراً، ثم وزع الجيش إلى
مقدمة وقلب وميمنة وميسرة، ثم بدى القتال في نفس اليوم وهو الثالث
من شهر جمادي الآخر سنة ١٣ للهجرة، فكان يوماً عظيماً حاسماً، انتصر
فيه جيش الإسلام انتصاراً باهراً وحلّت الهزيمة المنكرة بجيوش الروم، بعد أن
قتل منهم قرابة المائة ألف مابين قتيل ومترد في (الواقصة) حيث وقعت
المعركة واستشهد من المسلمين قرابة الثلاثة آلاف.

وهكذا كانت معركة اليرموك خطوة ظافرة مباركة مهدت لفتح دمشق
وسائر أصقاع الشام بما فيه فلسطين والاردن، وتبع ذلك فتح مصر، وكتب
الله على أيدي أولئك الأبطال عزة الإسلام وانتشاره في أقطار الأرض

(١) فتح الشام للواقدي صفحة ١٣، ١٤.

(٢) فتح الشام للواقدي صفحة ١٣، ١٤.

وحقق الله لعباده المجاهدين قوله تعالى (ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويُّ عزيز).

ولقد ضرب خالد بن الوليد مثلاً أعلى في البسالة وضبط النفس والتفاني في رفع راية الإسلام، دون أن يتأثر وهو في ميدان المعركة ببريد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبئ بوفاة أبي بكر، ويأمر عبيدة بن الجراح بتولي القيادة العامة للجيش الإسلامي، بل ظل وفياً أميناً، إذ كان غرضه الوحيد وهدفه الأسمى أداء الواجب وخدمة الدين. أيها الأخوة، إن لنا في هذه الوقائع التاريخية، وواقعة اليرموك بالذات لأكبر العظات، وأعظم العبر، وأهم الدروس، وكلها تثبت لنا أهمية الإيمان وأثره الفعال في النجاح وإحراز النصر.

أيها الأخوة، أرجو المعذرة إن كان في كلمتي قصور فيشهد الله أنها بنت ساعتين كتابة ومثلها نسخاً إذ لم أبلغ بالاشتراك في مؤتمركم هذا إلا البارحة، فمن رأى منكم ثغرة نقص فليسدّها، أو هو عيب فليسترها، ولقد كان البحث مما استقرّته عن الواقعة قديماً، وكما يقال (حال الجريض دون القريض) فلم يعد أمامي وقت لحشر المراجع والنظر فيها إلا ما استعين به على استذكار الأحداث. ولا غرو، فمن ينظر ملياً في الموضوع يجد أن كلا من الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ والبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ أقدم من كتب عن الواقعة وجاء بعدهما محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ فكان بحثه مكملًا لهما، ومن جاء بعد ذلك فهو عالة على هؤلاء الثلاثة وكما قلنا سابقاً أن بعض من كتب بعد ذلك في ذات الموضوع فإنما كتب من زاوية أهدافه ومراكز اهتماماته، ولهذا فقد جاء حاملاً الكثير من التخرصات والتعليقات التي تتمشى مع مقاصده ومآربه، عندما اعتبروا تلك الحملات موجة الهجرة العربية نحو الهلال الخصيب نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية، وأعنى بذلك بعض الكتاب الأوربيين أمثال: كيناتي و سبرنجر وارنولد وفيليب حتى وأمثالهم من المتخرصين المغرضين.

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله

وصحبه.